الكُرسي بِتنَسّي

" مُبارك...مُبارك. أُعطِيَت القَوس باريها. الشخص المناسب بالمكان المناسب. تستحق الوظيفة بجدارة".

هذا الحديث دار بيني وبين قريب لي، حصل على وظيفة مُدير شركة كبيرة. اعترف أني سُررت لسماع الخبر، فالرجل له باع طويل بالإدارة وقد مضى وقت طويل دون ان يحصل على وظيفة تليق به، ممّا أصابه بالإحباط والاكتئاب وهو يرى غيره يتقدم ويترقّى ويبقى هو على حاله. وقد كانت زوجته، في كل جلساتنا وزياراتنا تذكره بأنه يجب أن يتقدم لأنه "مش ناقصه اشي".

أقوال الزوجة سببت لي وله الإحراج وعدم الارتياح. ومن هذا المُنطلق شعرت بفرحة كبيرة لترقيته، أولًا لأنه يستحق ذلك وثانيًا كي نرتاح من لسان زوجته وحسدها.

قررت أنا وزوجتي أن نقوم بزيارة تهنئة لقريبنا بأسرع وقت. وقُمنا بشراء هدية ثمينة تليق بمقامه ومنصبه الجديدين. وقمت بالاتصال به فردّت عليّ زوجته وبادرتها التحية وانا متحمس وسعيد بهذا الحدث.

كان ردّ الزوجة فاترًا وباردًا بعض الشيء. أفصحت لها عن رغبتنا بزيارتهم للمباركة لزوجها ولها على هذا الحدث الكبير. حاولت الزوجة في البداية، التملّص والتّهرب بحجة انشغال زوجها وعدم وجود وقت فراغ لديه. لكنها خضعت ورضخت تحت إصراري وإلحاحي الشديدين.

قُمنا بزيارتهم في نهاية الأسبوع. فتح ابنهم الأصغر الباب لنا وقادنا، بقامته القصيرة، إلى الصالون الذي لاحظت فيه تغييرًا ملحوظًا: فالكنبات جديدة والبرادي برّاقة والسجّادة فارسيّة مُزركشة وغيرها من التغييرات.

استقبلني قريبي باحترام وهدوء ورصانة، بينما جلست زوجته تضع ساقًا على ساقٍ كأنها سيدة فرنسا الأولى وقد غيّرت "اللوك" وصبغت شعرها وصففته بما يليق بمركزها ومنصب زوجها الجديد.

معلوم أنّ أكثر الناس يبدأون حياتهم كأشخاص بسطاء متواضعين. لكنهم يتغيرون إذا حصلوا على ترقية أو منصب جديد. فإذا جلسوا على كراسي الوظيفة نسوا أصلهم أو تناسوا. فنراهم يتغيرون في سلوكهم وتصرّفاتهم مع الناس وحتى مع أقرب المقربين إليهم، وكما يظهر الأمر جليًا على أولادهم ونسائهم، حيث يبدأ التغيير بما يُسمّى "الكبرة" و "البرستيج". فنرى تغييرًا ملحوظًا في المنزل حيث تبدأ أعمال الترميم والإصلاحات، وتبدأ الزوجة بحملة مقتنيات، عفوًا "شوبينج" تتضمن "كنبيات القعدة" وتنتقل إلى السيارة الجديدة من النوع الفاخر، ومنها إلى شراء الملابس الجديدة للزوجة، طبعًا لا ننسى الزيارات الدائمة لمصفف الشعر والكوافير وغيرها مع مراعاة "اللوك" الجديد.

وينتقل التغيير إلى الأولاد، فالبنت تتعلّم العزف على البيانو، لتتمكن من عزف موسيقى "موتسارت" عند زيارة الضيوف المرموقين القادمين مع الوظيفة الجديدة. ولا ننسى المدارس الخاصة ذات الأقساط السنوية واللغات المتعددة. كما أن الأمر يُحتّم علينا إعادة النظر في عضوية أفراد العائلة بمنصّات التواصل الاجتماعي مثل "الانستغرام، والسناب تشات والفيسبوك، حيث يقوم أفراد العائلة بحذف الصور القديمة واستبدالها بصور جديدة برّاقة من سهرات المطاعم الفاخرة والاجازات السنويّة في سويسرا الّتي أوجبتها الوظيفة الجديدة. يجدر الإشارة أنّ معظم هذه المصاريف بالدّين وعلى "خازوق".

طبعًا لم أذكر التغيير بالسلوك، فاليوم من غير المناسب أن نُصاحب أصدقاء "العصر الماضي"، فلدينا أصدقاء جدد وعادات جديدة، لدرجة أننا نسينا أهلنا وأقربائنا البسطاء، فهم لا يناسبون مركزنا "وبرستيجنا" الجديدين، حتى أننا قاطعنا أعراسهم ومناسباتهم ونسينا صلة رحمهم. هل بالفعل يمكن للوظيفة أن تغيّرنا؟ أن تحوّلنا إلى أشخاص آخرين؟

للأسف الجواب هو نعم، عند البعض. ما أن يحصل أحدهم على وظيفة أو درجة علميّة حتى يُشعرك أنّ "بيل غيتس" (مدير شركة مايكروسوفت وأغنى رجل بالعالم) يعمل عنده بوظيفة جُزئية. والويل والعار لشخص عادي يقوم بلفظ اسمه دون لقب المدير أو الوزير أو الرئيس قبله. حتى طالب الدكتوراه في سنته الأولى يشعرك أنه أعظم علماء عصره، وأنّ اللجنة التي تقرر الفائزين بجائزة نوبل قد أوقفت أعمالها حتى ينهي الدكتور تعليمه.

هناك فرق كبير بين أن يحترم الانسان نفسه ويقدّرها وهذا شيء عادي لا يُلام عليه، وبين الغرور "ونفش الريش" و "الكبرة" ونسيان الأصل، فهذا فيه الشيء الكثير. إذا كانت الوظيفة والعلم لا يزيدانك تواضعًا فنحن في غنى عنها وعنك. تواضعوا واذكروا أين كانت بدايتكم، وأين كنتم ومن أهلكم وأقرباءكم. لا تنسوا حارتكم ومدينتكم وأصدقاءكم، فالوظيفة غير دائمة والحياة غير خالدة، والصحة غير باقية.

وهل نستطيع أن ننهي حديثنا بغير طرفة كما عوّدناكم؟

"يُقال أنّ خادمًا صغيرًا في أحد القصور، لجأ إلى حيلة خلال صوم شهر رمضان، فكان يخبئ ما تصل يده إليه من البيض يأكله خِلسة عن رفاقه.

وجاء من يُخبر رئيس الخدم بالقصر أنّ الصّبي قد حمل بيضة وخرج بها خارج سور القصر. فطلب رئيس الخدم من أحد الصبية أن يتعقّبه ويضبطه بالجرم المشهود يعود به إليه مع تقشيرة البيض.

ذهب الصبي وعاد بعد دقائق قائلًا: "سيدي! الخادم أكل البيضة.. والتقشيرة." فغضب رئيس الخدم واستدعى الخادم ودعاه إلى الاعتراف وأدخله وأجلسه على الكرسي الخاص بالاعتراف وسأله عمّ كان يفعل وراء سور القصر.

قال الخادم: "نسيت".

فانتهره رئيس الخدم وقال: "هل يُمكن أن تنسى بهذه السرعة ما كنت تفعله قبل قليل؟"

قال الخادم: "العجيب يا سيدي، أنّ هذا الكرسي تُنَسِّي من يجلس عليها فلا يعود يتذكّر شيئًا، وإذا كنت لا تصدق اجلس عليها ودعني أسألك سؤالًا".

فجلس رئيس الخدم على الكرسي، واقترب منه الخادم وسأله: "أيّها الرئيس! ماذا كنت تفعل مع ابنة وزير البلاط، تحت الزيتونة، مساء أمس؟"

فنهض الرئيس وقال: "معك حق يا ابني، الكرسي بتنَسِّي!"

ارحموا أنفسكم وارحموا غيركم أدامكم الله.

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة